التبصّر الخُلقيّ كعامل مؤسِّس لاستراتيجيّة الانتصار

محمود حيدر

الكلمات المفتاحية: محمود حيدر، التبصر الخلقي، الانتصار، الأخلاق، المقاومة، المعرفة الدينية، الغاية، الوسيلة

الأخلاق وعمل المقاومة

تدخل الأخلاقيّة كأصل تكوينيّ للمقاومة، وعلى هذا النحو، هي حالة معرفيّة تتجلّى في السلوك، من خلال التربية التي رسّخها اتّحاد النظر والعمل. ولكن هذا الأصل التكوينيّ الأخلاقيّ هو من مقتضيات الحقيقة الدينيّة التي تحتلّ المقام الأوّل لمرجعيّة المقاومة. ومن داخل هذه المرجعيّة بالذات، تتشكّل ثلاثة أحياز تؤلّف عمارة وجودها:

- الحيّز الأوّل: المعرفة الإيمانيّة (التوحيد).
- الحيّز الثاني: المعرفة الدينيّة (الشريعة وفروعها).
- الحّيز الثالث: المعرفة السياسيّة، المؤيّدة بالحيّزين السابقين. بتوفير هذا الحيّز، تغدو الحقيقة الدينيّة سارية في الزمان والمكان، وراسخة في مجال التمثّل. ففي الترسيخ الجامع بين الأحياز الثلاثة لا يكفي الاقتران بين النظر والعمل، بل ينبغي أن يبلغ العمل، درجةً يصبح معها عامل إمداد وتفعيل للنظر. بل يشكّل عامل تجديد، وإبداع للمفاهيم، والأفكار، والاستراتيجيّات، مثلما يؤلّف تسديدًا للممارسة، بأسبابها، وآليّاتها، وطرائقها المتعدّدة.

على هذه الأحياز –المترابطة برباط وثيق فيما بينها– يستوي البعد الأخلاقيّ للمقاومة. ذلك يعني أنّه بُعد متّخذ من حقيقة الشريعة، وتاليًا من الميراث اللامتناهي للحقيقة المحمّديّة الممتدّة من السيرة التاريخيّة للأنبياء والأولياء وأئمّة أهل البيت عليهم السلام ونخبة الصحابة.

أمّا الحديث عن مذهب أخلاقيّ للمقاومة، فيلزم خريطة لمجالات سلوك المقاومين في الحرب والسياسة. فالأخلاقيّة –كما لاحظنا – تبقى مجرّد أحكام ذاتيّة بكلمات صمّاء، ما لم تتحيّز في حقول الممارسة. إذ عند التحيّز لا يعود السؤال عن معنى الأخلاق منفصلًا عن مجال العمل؛ حيث يتحدّد المعنى من خلال الطريقة، أو المذهب اللذَين يستعملانه في الواقع.

نلاحظ طائفة من المجالات، تظهر فيها الأخلاقيّة كترجمة لتكامل النظر والعمل، ولاتّحاد النظريّة والممارسة. ويمكن أن نرى ذلك على النحو التالي:

1. **مجال تلازم الوسيلة الفاضلة بالغاية الفاضلة**: الصورة هنا مركّبة، سواء في السياسة أو في الحرب. فالمقدّمات الفاضلة تؤدّي إلى نتائج فاضلة، خصوصًا إذا أُخذت الأسباب المشروعة؛ لبلوغ الأهداف المشروعة. ولقد كانت الصدقيّة من السمات المميّزة لعمل المقاومة السياسيّ، ولا سيّما في مجتمع متنوّع ومتحرّك، ومتأثّر بعواصف الخارج والداخل، كالمجتمع السياسيّ في لبنان.

والصدقيّة التي حكمت تجربة حزب الله منذ انخراطه في الحياة السياسيّة اللبنانيّة، شكّلت برغم التعقيدات الجمّة التي واجهتها تحالفاته، لونًا جديدًا حلَّ على التقليد السياسيّ اللبنانيّ.

تجلّت الصدقيّة أساسًا في ممارسة حرب التحرير، سواء في العلاقة مع المحيط الجماهيريّ الذي تعمل المقاومة فيه، أو في التعامل مع الإنجازات التحريريّة التي توّجت بانتصار ربيع العام 2000. ويمكن أن نسجّل في هذا المجال الملحوظة التالية:

لقد كان أمرًا استثنائيًّا في أخلاقيّات الحروب؛ أن تتعامل المقاومة المنتصرة بكثير من التسامح والرحمة، مع القرى والبلدات التي استُخدمت من جانب العدو الإسرائيليّ وعملائه، في ما يسمّى بـ «جيش لبنان الجنوبيّ»، كقلاع محصّنة للاعتداء على المقاومة، وجماهيرها وتدمير قراهم ومدنهم.

ولو لم تكن البنية الأخلاقيّة للمقاومة على قدر من السعة والترسّخ في فضاء المقاومين وسلوكهم وثقافتهم، لحصلت مجازر أشدّ فظاعة ممّا كان يحصل خلال الحرب الأهليّة.

2. **مجال البصيرة الخُلقيّة**: هذا المجال هو استئناف لما قبله. فحين أسقطت المقاومة من الممارسة السياسيّة الكلاسيكيّة مبدأ «الغاية تبرّر الوسيلة»، كانت تدرك أنّ مبدأ كهذا يمكن أن يجلب منافع ظرفيّة، ويؤمّن مصالح قد تكون مهمّة في معايير اللعبة السياسيّة اللبنانيّة، لكنّ الالتزام بمبدأ الوسيلة الفاضلة للغاية الفاضلة كمبدأ أخلاقيّ، سيكون له مؤثّراته الإيجابيّة الكبرى على استراتيجيّة التحرير. لقد كان من شأن نهج كهذا أن يُفضي إلى تأليف إجماع لبنانيّ حول المقاومة، كان له الفعل التوليديّ لمجتمع مدنيّ وسياسيّ لبنانيّ مؤيّد للمقاومة ومتعاطف معها، وإن بنسب ودرجات تتفاوت بين فئة سياسيّة وأخرى، أو بين طائفة وأخرى.

تبيّن الفلسفة الأخلاقيّة المعاصرة أنّ إحراز مَلَكة البصيرة الخُلقيّة، ونقلها إلى حيّز الممارسة وحقول التجربة، إنّما يدلّ على أنّ الجهة التي أحرزت هذا المقام، بلغت درجة التحكّم بمسار حركة المواجهة.

ومن أبرز مزايا البصيرة الخُلقيّة الآتي:

أوّلًا: عمليّة التبصّر أينما وكيفما تأتي، فهي تتمثّل في إدراك الطبيعة الباطنيّة الحقّة لإرادات متعارضة معيّنة، كائنة في هذا العالم بالفعل. وهكذا فإنّ البصيرة الخُلقيّة المطلقة التي نستطيع أن ندركها، ولكن لا نستطيع الحصول عليها كاملةً، سوف تدرك الطبيعة الداخليّة الحقّة لكلّ الإرادات المتصارعة في العالم. ذلك يعني أنّ معرفة الآخر ضروريّة؛ للاعتراف به ككائن موجود، وعلى نحو ينبغي التعامل معه، بوصفه شريكًا في الوطنيّة مهما بلغت خصومته لي أو خصومتي له.

ثانيًا: تتضمّن البصيرة الخُلقيّة –بطبيعتها، وعند الذين يحصّلونها– الرغبة في تحقيق الانسجام قدر الإمكان، بين الإرادات المتصارعة في العالم، التي يتمّ إدراكها في لحظة التبصّر.

ثالثًا: إذا كانت البصيرة تهتمّ مباشرةً بإرادتين متعارضتين، مثل إرادتي وإرادة شريكي في المواطنة، فإنّ هذه البصيرة تتضمّن الرغبة في الفعل، كما لو كنت أنا وشريكي في المواطنة كائنًا واحدًا يحوي رغباتنا معًا.

رابعًا: إذا كانت البصيرة الخُلقيّة تعمل ضمن غايات عامّة متصارعة، كما هو حال لبنان، تبدو الصورة حينئذ، كما لو كان الفرد الذي يدرك هذه الرغبات المتعارضة، يحوي حياة كلّ هذه الرغبات ضمن وجوده الخاصّ.

ومتى أتقن الفاعل روح التبصّر، فإنّه يضع في اعتباره كلّ نتائج الفعل، وأثره على كلّ الغايات التي قد تتأثّر به.

خامسًا: ما دامت البصيرة الخُلقيّة تتصرّف على أساس أنّ الآخر هو شريك في الفعل الإجماليّ للأمّة، فمن البديهيّ أن يصبح الآخر هو أحد مقوّمات معرفة الذات. بل وأحد الأعمدة الأساسيّة لأفعال الأنا في المحيط الذي تتحرّك فيه. وعلى مبدأ «لا ينبغي أن يكون الآخر إلّا ما أنت فيه» يمكن أن تولد ممارسة سياسيّة من نوع جديد، الممارسة التي تتعارض فيها البصيرة الخلقيّة مع كلّ صور الدوغمائيّة الأخلاقيّة، المبنيّة على غاية أخلاقيّة أحاديّة، لا تستطيع أن تمنح سواها من الغايات مساحة من القبول والإصغاء.

3. **مجال الصبر**: في السياسة كما في الحرب الأخيرة، ظهّرت المقاومة نهج التبصّر على قاعدة اعتبار البصيرة الخُلقيّة مقوّمًا لاستراتيجيّتها العليا. حيث بدا بوضوح أنّ القدرة على التحكّم بالمسارات الميدانيّة للمواجهة، تلازمت مع القدرة على استقراء الخطوط الأساسيّة للزمن الذي سيلي العمليّات الحربيّة.

إنّ حضور البصيرة الخُلقيّة في مستويات التكتيك والاستراتيجيا، مكّن قيادة المقاومة من مواءمة الوسائل مع الغايات، من دون أن يحصل خللٌ وسط الزحام الهائل للحرب.

لعلّ الأمر الأهمّ في استراتيجيّة التبصّر أنّ المقاومة استطاعت الإمساك بعامل الزمن. وهذا عائد أساسًا إلى المقتضى الأخلاقيّ للحقيقة الدينيّة. وهو مقتضى يقوم على مبدأ الصبر في كلّ أحوال وتداعيات الممارسة الحربيّة والسياسيّة. فحين أخذت المقاومة بمبدأ الصبر، أمكن لها ألّا تستغرق بلذّة الانتصار إلى حدّ نسيان الذات أو نسيان العدوّ، مثلما أمكن لها أن تتهيّأ لاحتمال الهزيمة، بما هو احتمال واقعيّ وممكن في مجال صراع الإرادات.

كان للمقاومة في القاعدة الخُلقيّة التي أرساها كلام الإمام عليّ عليه السلام في الصبر، ما يجعل منها طريقًا يؤخذ به لصياغة منهج متكامل في التعاطي مع تقلّبات الزمن السياسيّ والاجتماعيّ: «الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عمّا تحبّ»[1]، ولا شكّ في أنّ استنتاج المنهج من كلام الإمام عليه السلام، يفضي إلى ما نسمّيه بـ«منطقة الاعتدال»، وهي المنطقة المعرفيّة والسلوكيّة التي يسيطر فيها ساكنها على الزمان والمكان، والتي يتمكّن فيها كذلك من إضافة توازن دقيق داخل جدليّة الكراهية والحبّ.

التجربة الأخيرة للمقاومة أظهرت بالنظر والمعاينة، درجة عالية للتحكّم باللحظة، فقد خاضت حربًا تتحرّك فيها احتمالات الخسارة والربح بصورة متوازية. وهنا يمكن ملاحظة ما يلي:

لم تشهد الحرب أن تعاملت قيادة المقاومة مع اللحظة على خطّ الانفعال أو ردّ الفعل، كان كلّ شيء في الأداء العسكريّ يجري وفق حسابات بالغة الدقّة، فلم تصوّب الصواريخ نحو التجمّعات المدنيّة، مقابل التدمير المنهجيّ والعشوائيّ للمدنيّين الآمنين من جانب العدو الإسرائيليّ. ومثلما كان الأداء العسكريّ محكمًا ودقيقًا ومحسوبًا، كذلك كانت صورة الأداء السياسيّ. فخطاب المقاومة عبر إطلالات قائدها بين حين وآخر، شكّل فعلًا استثنائيًّا، موازيًا للفعل الاستثنائيّ في ميادين الصمود والمواجهة. ولقد شكّل خطاب السيد نصر الله الموجّه إلى المجاهدين والأنصار، وبالتالي إلى اللبنانيّين جميعًا، وكذلك إلى العرب والمسلمين والعالم، لحظة أخلاقيّة بامتياز:

[1] محمّدي الريشهري، **ميزان الحكمة**، الطبعة الأولى، (بيروت: الدار الإسلامية، 1985)، الجزء 5، الصفحة 267.

فهو خطاب مسموع من جانبين كانا يستمعان إليه بشغف نادر:

– "الأنا" الجماعيّة: التي تماهت مع كلمات القائد إلى درجة أنّها سمعت لتطمئنّ، وأصغت إليها لتزداد إيمانًا بصدقيّة الوعد الصادق.

– "غير" الجماعيّة: فهي على اختلاف مراتبها (العدوّ المباشر– الخصم السياسيّ الداخليّ– المحايدون) كانت تتلقّى الخطاب باستعداد مسبق. وكان يحملها إلى ذلك همّان: الصدقيّة الأخلاقيّة لمرسل الخطاب، والشعور بأهمّيّة المعلومات التي سيدلي بها، وبآثارها المفصليّة على سياق المواجهات.

4. **مجال القبض على الزمن والتحكّم به:** تُفضي مقولة الصبر في حقل الممارسة إلى نشوء منطقة الاعتدال. ففي هذه المنطقة بالذات سوف تحرز المقاومة السيطرة على واحد من أهمّ وأعقد استراتيجيّات الحرب (الزمن). فبملاحظة السيل الهائل من التقويمات النقديّة لجنرالات العدوّ ومفكّريه وقادته، خلال الحرب وبعدها، يبرز معنى انفلات عنصر المبادرة. فكانت الحرب، بحسب الرؤية الإسرائيليّة، حربًا من أجل استعادة المعنى؛ أي إعادة ضبط الزمن السياسيّ الأمنيّ والسيكولوجيّ على إيقاع روح الغلبة الإسرائيليّة. ولم يكن كلام شمعون بيريز: «إسرائيل تخوض حرب حياة أو موت» سوى ترجمة قيميّة للإحساس بالخوف من فقدان الزمن. وكان هذا الإحساس يعكس مستهلّ الجدل بين الزعامات الإسرائيليّة، في التصدّع الذي أصاب منظومة القيم التأسيسيّة، التي تقوم عليها الدولة اليهوديّة على أرض فلسطين.

ثمّة دلالة أعمق ممّا قد يُتصوّر، في كلمات بيريز. فلو قالها غيره من الزعامات الجديدة، ربّما لأخذنا الظنّ بأنّه مأخوذ برهبة المشهد، أو أنّه مجرّد فتى يهوديّ لا يزال يستغرق في أوهام قوّة راحت تتبدّد كدخان القنابل.

لكنّ القائل هو آخر من تبقّى من عجائز اللاهوت الإسرائيليّ المعاصر، فكأنّما أراد أن ينبّه إلى خطب جللٍ، لا مناص واقع. كأنّه أدرك ما لا يدركه سواه، أنّ حربه هذه المرّة لا تشبه سابقاتها في شيء، وأنّ من يحاربهم ليسوا من الذين ما إن اطمأنّت قياداتهم إلى بسط سلطانها، حتّى انحلّ البأس وابتَرَدَ الروح، واستراح السلاح، فأخذهم العدوّ في ضعفهم.

أمّا بيريز فقد استظهر الروح الإسرائيليّة في مواجهات كثّفها الزمن وراكمها، إلى حدّ أن تحوَّل التاريخ إلى لحظة. لقد ذهب بيريز من فوره إلى المعنى. سمع، وشاهد، وتكلّم، لكنّه كان يتأمّل كيف تذوي الروح، بعد أن

حلّ الجنود في حقول المفاجآت. ما كان سعيدًا قطّ وهو يسمع كلامًا لضابط كبير في سلاح المدرّعات يقول: «كيف لنا أن نقاتل عدوًّا لا نراه...».

صعب عليه وهو على حافّة القبر أن يقع تحت هذه الوطأة. كيف له وهو من جيل الأوائل الذين صاغوا كلّ الكلمات الأولى للاهوت الاقتدار و«أخلاقيّاته» أن تقبل نفسه الأمّارة بالقتل كلّ هذه الكلمات المهزومة.

سيرة شمعون بيريز –كغيره من جيل المؤسّسين– مملوءة بما وضعته فيه ثقافة استعداء الآخر.

هذا الذي استهلّ صباه بممارسة العنف ضدّ أهل فلسطين وبتهريب السلاح، لن يكون طريقه إلى السلام مكسوًّا بالورد. فما تأسّس على القتل، والنفي، والدم المراق، لا يبلغ إلّا الخاتمة نفسها. فالوعاء الإسرائيليّ اللاأخلاقيّ لا يقبل سلامًا مع العرب، إلّا أن يكون مؤسّسًا على الغلبة والإكراه. وكغيره من إسرائيليّي الجيل الأوّل الّذين هم أبناء هذا الوعاء المكتظّ بالعداء... أراد أن تجري الغلبة عبر حماية «إسرائيل» بواسطة العرب أنفسهم. «والشرق أوسطيّة» وبعدها «المتوسّطيّة» ليستا سوى آليّات فضلى، لسور الحماية العظيم، لإسرائيل العظمى.

لكنّ حظّ الرجل، الملوّن بألف لون ولون، لم يجلب إليه غير سوء الطالع، ولسنين انقضت راح الرجل يهبط كمقامر أمسكت به شياطين الخسران. ولنا أن نرى المشهد: سقط سقوطًا مدويًّا في حرب «عناقيد الغضب» على لبنان. يومئذ أسقطه الجنرالات المحمولون بجوعهم الضاري إلى السلطة، جاء بنيامين نتنياهو عدوّه السياسيّ الطبيعيّ. وبعد سنوات قليلة جاء إيهود باراك، محاولًا أن يستعيد به الأمل المستحيل.

أمّا لبنان الذي قَلَبَ «عناقيد» الغضب إلى هزيمة، فسيقيم الحدّ على حلم بيريز الأعظم. حتّى إذا جاءت الحرب الأخيرة، كان عليه أن يصرخ بأعلى صوته: "كونوا على حذر يا يهود إسرائيل.. إنّها حرب حياة أو موت»، لكنّ لم يكن صراخه، على ما بدا لمن سمع أو رأى، إلّا صراخًا على حافّة القبر.

هذه عيّنة ممّا انكشف من تهافت المجتمع السياسيّ الإسرائيليّ، بعد اهتزاز القدرة على التحكّم بزمن الحرب والسلم. وهناك ما لا حصر له.

لقد كشفت سَيْرِيّة فعل المقاومة عن اختراق واضح لجدار الزمن الإسرائيليّ السميك، ينظر إليها العقل الإسرائيليّ كقضيّة ميتافيزيقيّة. والأمر هنا لا يتعلّق بالجغرافيا وحسب، وإنّما أساسًا بالمعنى؛ معنى أن يُستباح «اللاهوت السياسيّ الإسرائيليّ» على النحو الذي أظهرته مواجهات المقاومة.

5. **مجال توليد المعنى**: كلّ ممارسة تتوخّى المعنى فهي ممارسة أخلاقيّة. أي إنّها فعل يتّخذ من «قبليّات» الفاعل ومرتكزاته الإيمانيّة والأيديولوجيّة متّكًا له. فالحرب التي وقعت في تمّوز 2006، هي «حرب معنى»، ومن «أجل المعنى» بين عدوّين، لكلّ منهما حدُّه الوجوديّ، يقيمه على الآخر.

كانت المقاومة حاضرة على الدوام في معنى قتال المحتل الإسرائيلي. وهو حضور يتعلق بجوهرية تتكامل فيها وتتكثَّف كل مراتب المعنى وطبقاته، الإيمانية والدينية والفكرية والثقافية والسياسية. وهذه المراتب متصلة فيما بينها، ولا تنفصل أبدًا عن البناء الأخلاقي لفعاليات المقاومة، بل هي مؤسِّسة ومؤلفة للتبصر الخلقي.

إذا كان فعل المقاومة هو من أجل تثبيت وترسيخ معنى انتصار العام 2000، وكذلك في سبيل تعميق معنى هزيمة العدوّ، فإنّ غاية الحرب الإسرائيليّة على لبنان هي "استعادة المعنى"، ولصحّ أن نقول أنّها حرب إعادة الاعتبار لأزمنة الغلبة. إذ حين جرى الكلام على الانتصار والهزيمة، والحياة والموت؛ لم يكن ذلك إلّا لأنّ النفس السياسيّة الإسرائيليّة بلغت حدودها القصوى من الشعور بالشكّ.

لكنّ ذلك لا يدلّ على أنّ الحروب التي خيضت ضدّنا، وانقضت، هي حروب بلا معنى. فكلّ حروب «إسرائيل» تكتسب هذه الصفة بدرجات مختلفة، فالقضيّة بالنسبة للعقل الاستراتيجيّ الإسرائيليّ، أنّ كلّ حرب، كان يخوضها، صَغُرت أو كَبُرت، لا قيمة لها، ما لم تكن على رباط وثيق بهدف البقاء والهيمنة.

لكنّ الحرب التي لا نفتأ نستظلّ بها، هي استثناء على القاعدة. وانطباعها بهذه السمة الاستثنائيّة عائد إلى كونها تُظهر الحدّ الأعلى من الدلالة على معياريّة الهزيمة والنصر.

الهزيمة والنصر معنيان سيحدّدان سؤال الأخلاق وأبعاده الميتاستراتيجيّة بين المقاومة و«دولة إسرائيل». وعلى هذين المعنيين سوف يتأسّس مناخ معرفيّ، يستمدّ من روح المقاومة وفعلها تفاؤل الإرادة وتفاؤل العقل، بحقيقة أنّ بالإمكان وقوع الانتصار كرّة أخرى، ما دام قد وقع مرّتين.